

الفصل الرابع

حركة الموالى فى قيام الدولة العباسية

أبو مسلم — البرامكة

فى سنة ١٢٦ هـ ، ٧٤٤ م وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير ابن ماهان إلى خراسان ومعه السيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع فيها النقباء ومن بها من الدعوة ، ونعى لهم الإمام محمد بن على ، ودعاهم إلى إبراهيم فقبالوا الدعوة^(١) وفى سنة ١٢٩ هـ جاء أبو مسلم إلى خراسان مزودا بسلطة مطلقة من إبراهيم الإمام ، فقد زعم أن إبراهيم حملة الأمر وقال له : وإنيك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحى من مضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ، ومن وقع فى نفسك منه شىء ، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل^(٢) . والتناقض فى هذه الوصية يؤيد انتحالها ، وشدة لهجتها توضح شدة الحقد الكامن فى صدور الموالى .

ولكن أبا مسلم ظل يقتل بين الذروة والغارب حتى استطاع أن يضرب نصرا بالكرمانى ، وأن يدخل مرو ظافرا وأن يعلن دعوته على الملأ . ثم أراد أن يميز حزبه فابتدع بدعا جديدة — اجتماعية دينية ، منها — إيقاد النيران^(٣) عند اجتماع القوم وهى أثر من آثار المجوس .

(٢) ط ج ٢ ص ١٩٣٧

(١) ط ج ٣ ص ١٨٦٩

(٣) ط ج ٣ ص ١٩٥٤

وكانت العادة في الإسلام أن ينادى الإمام : « الصلاة جامعة »
فيجتمع مع الناس فيصلي بهم ركعتين ، ثم يوضح لهم ما يريد . « وغير أبو مسلم
صلاة الجمعة والعيدين فأمر الإمام أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان
وبلا إقامة ، وكان بنو أمية يبدون بالخطبة والأذان ثم الصلاة بالإقامة
لصلاة يوم الجمعة . ويخطبون على المنابر جالسا في الجمعة والأعياد .
وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يكبر تكبيرات تباعا ، ثم يقرأ ويركع
بالسابعة ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع
بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ويختتمها بالقرآن ، وكان بنو أمية
يكبرون في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث
تكبيرات^(١) ثم صنع راية خاصة سماها السحاب ، وسمى الرمح الذي
يحملها الظل ، وتأويل هذين الاسمين : أن السحاب يطبق الأرض وكذلك
دعوة بني العباس . وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبدا .
وكذلك لا تخلو من خليفة عباسي أبد الدهر^(٢) .

اعتمد العباسيون على الموالي في حركتهم حتى تم لهم الظفر ، وانتقلت
الخلافة من بني أمية إلى بني العباس : من بيت ابن عم إلى بيت ابن عمه .
ولكن هذا الانتقال لم يرض عامة العرب ، فإنه في نظر التاريخ لم يكن
غير فوز للموالي على العرب . يقول الجاحظ : « إن دولة بني العباس
أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية^(٣) » .

ويقول أبو حمزة الأصفهاني في كتابه (تاريخ سني ملوك الأرض
والأنبياء) : « إن الذين قاموا بنقل الدولة إلى بني العباس وبني أمية . عجم
خراسان بأقنائهم جندهم من العرب^(٤) » . ويقول بيكر : إن هذه الحرب
في الحقيقة حرب موجهة ضد البيت الأموي . وإن انتصار العباسيين
على الأمويين انتصار الفرس على العرب^(٥) .

(٢) ط ج ٣ ص ١٩٥٤

(١) ط ج ٣ ص ١٩٥٦

(٣) البيان ج ٣ ص ٢٠٦ (٤) ص ٢١٦ (٥) الدراسات الإسلامية ج ١ ص ١١١

ويقول محمد كرد علي في كتابه : الإسلام والحضارة العربية : « إن الدولة العباسية دولة فارسية دخلها تحوير بالإسلام » .

رأى أبو مسلم أن الوقت حان لانفصال الفرس عن العرب ورأى أن جنود الفرس يستطيعون أن يجيبوا رغبته ، فأجمع على خلاف المنصور بعد أن انتصر على عمه عبد الله بن علي ، فاجتاز طريق خراسان ، فلما علم المنصور بذلك ، عرف في نفسه الشر ، فخرج إليه ونزل المدائن وكتب إلى أبي مسلم : « إني قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتسبها الكتاب فأقبل فإن مقامك عندنا قليل » ، فقرأ الكتاب ومضى على حاله ، ثم ولاه مصر والشام فأبى^(١) . وما زال يتلطف إليه ويرسل دهاة الرسل حتى أقنعه ، فلما ظفر به ، أمر بقتله ثم خرج نخطب بالناس :

« إن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيحمتنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بيعته فحكمتنا عليه^(٢) » . فاضطربت خراسان جميعها لقتله ٣ وظهرت الفرق الدينية الفريية عن الإسلام ، التي سنبحث عنها في الفصول التالية^(٣) .

البرامكة

اتصلت هذه الأسرة بالبيت العباسي اتصالاً وثيقاً وهي من الأسر الفارسية القديمة ، فلما ولد الرشيد أرضعته أم الفضل من زوجة يحيى ابن خاله البرمكي ، فتربى الرشيد بين يدي يحيى وفي حجر زوجته ، وكان الرشيد يدعوهُ أبا^(٤) وقد اتخذ من البرامكة من الوسائل أكثرها لجعل

(١) ط ج ١ ص ١٠٤ ، المسعودي ج ٦ ص ١٧٨

(٢) المسعودي ج ٦ ص ١٨٦ ، ط ج ١ ص ١١٦

(٣) ط ج ١ ص ١١٩

(٤) ط ج ١ ص ٥٩٩ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠

مستقبل الخلافة في يد هرون ، وأخذوا يهرقون بين الشعب والطاهدي ،
ويوسعون شقة الخلاف بين الأخ وأخيه^(١) حتى تم لهم النظر بموت
الطاهدي ، وانتقال الخلافة إلى الرشيد . جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد
فقال له : « قم يا أمير المؤمنين » فقال له الرشيد : « كم تروني عجائباً منك
بخلافتي ، وأنت تعلم حالي ضد هذا الرجل ، فإن باغته فهذا فما تكون حالي ؟
فقال له يحيى : هذا الحراني وزير موسى ، وهذا خاتمه . فلما قعد هرون
للخلافة دعا يحيى بن خالد بن برمك فقلده الوزارة وقال له : قد قلدتك
أمر الدولة ، وأخر جنته من عنق إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى ، ودفع
إليه خاتم الخلافة^(٢) ، وبذلك تم انتقال سلطان الحكم من يد العرب إلى يد
العجم ، وبقي للعرب الاسم فقط . أخذ البرامكة يتفانخون في البلاط ،
فاستبدوا بالملك ، واحتججوا أموال الجبائية ، وشغلوا مراتب الدولة
بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة ،
وقيادة وحجابة . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون
رئيساً من بين صاحب قلم وصاحب سيف . وكبح العرب عن التطاول
للولايات ، فصارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة ، وبني سهل
وبني نوبخت وبني طاهر^(٣) وقد وجه يحيى ولده الفضل والياً على خراسان
فاتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم لبني العباس —
وقد بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل جاء إلى بغداد منهم عشرون ألفاً^(٤) .
وكان هؤلاء البرامكة بما أوتوا من دهاء ، يظهرن الإسلام ويضمرون
في مكنتهم له الكيد . وكانوا كلهم على دين ماني إلا محمد بن خالد^(٥) .

(١) الجهنياري ص ٢٠٨ كرر ج ٢ ص ٦٣

(٢) الجهنياري ص ٢١١ ، الماوردي ذكره كرد علي في كتاب الإسلام والحضارة

العربية ج ٢ ص ٢١١ ، ط ج ٣ ص ٦٠٣ وما بعدها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٨ ط ج ١ ص ٦٣٠

(٤) ط ج ١ ص ٦٣١ (٥) الفهرست ص ٣٣٨

البرامكة ورواية التاريخ والأدب

والانتحال ووضع الكتب والترجمة والنشر

تمكن البرامكة من تدوير شؤون المملكة والتصرف في أحوالها ، ولم يكتفوا بهذا القدر من السلطان ، فاندفعوا إلى توجيه الحياة وجهة خاصة ، وأعانوا لتنفيذ خططهم جماعة من الأدباء والرواة والعلماء المترجمين والشعراء الذين تفتح أعمالهم عن أهداف هذه الخطة ، وكان من أبرزهم أبو عبيدة وعلان الشعوبى فى رواية التاريخ ووضع الأخبار . وحماد الراوية وخالف الأحمري فى رواية الشعر والانتحال ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقى والفضل بن سهل فى الترجمة عن الفارسية ، وسعيد بن البخسكان ، وسهل ابن هرون من الناقلين على العرب ، والواضعين الكتب عليهم ، ومن شعراء البرامكة الذين يدودون بهم عن أنفسهم الفضل بن عبد الصمد المعروف بالرقاشى وهو مولى رقاش . ولعل التعريف بمن ذكر يعطينا صورة تؤيد ما ذهبنا إليه فى شأن هذه الناحية من مقاومة الموالى .

رواية التاريخ ووضع الأخبار

١ - أبو عبيدة

من موالى تيم قريش ، فارسى الأصل ، أبوه على دين اليهود ، وجدته مجوسى ، جمع إلى ثقافة العرب ثقافة الفرس وثقافة اليهود ، ونال حظوة فى بلاط الخليفة بمساعدة المولى إسحق الموصلى ، حيث وصفه للرشيد بالثقة والصدق ، والسماحة ووضع من الأصمعى وثلبه ، وكشف للرشيد معانيه ، فطرد الأصمعى وحل أبو عبيدة محله (١) . كان أبو عبيدة متعصباً

(١) أغاني ج ٥ ص ١٠٧

على العرب ببعضهم^(١) ألف كتاب المثالب والظعن على العرب ، منها :
كتاب المثالب في قبيلة باهلة وآخر في المثالب على وجه العموم^(٢) . وفي
هذا الكتاب ظعن على بعض أسباب النبي^(٣) .

وطعته أكثره اختراع وبهتان ، كما رد عليه ابن دريد في كتاب
الاشتقاق عند ما طعن في فدكي بن أعبد وكان من عظماء بني سعد في
الجاهلية وله عتب بالبصرة والبادية^(٤) . وقد قصر أبو عبيدة نفسه على
مثالب العرب ووقف ضد كل من يفخر بنفسه^(٥) . وله كتاب معروف
اسمه كتاب الواحدة في مناقب العرب ومثالبها وضع فيه كثيراً من
الحوادث بين قبائل العرب وعزاه إلى الشعوبيين^(٦) . يقول كولد تسهر :
إن أبا عبيدة مولع بوضع الأخبار ، وضع الأحاديث التي تظهر خلاف
القبائل العربية فيما بينها وتهاجها ، وتشاتمها بقبائح الكلام ومقذع الهجاء^(٧)
ويقول المسعودي : إن لأبي عبيدة مصنفات في أيام العرب وغيرها ،
منها كتاب المثالب يذكر فيه أنساب العرب وفسادها ويرميهم بما ليس
من السياسة ذكره ولا يحسن وصفه^(٨) . وألف كتاباً في فضائل المعجم
وكان يفخر بهم ويقول : يعجبني قول أبي نواس .

بتينا على كسرى سماه مدامة مكلة حافتمنا بنجوم
فلو رد في كسر بن ساسان روحه إذن لاصطفاني دون كل نديم^(٩)
وألف كتاباً آخر سماه عمر كسرى ، وآخر سماه كتاب التاج خاصاً

(١) ابن قتيبة ص ٢٦٩

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٧ ، ٢ ، ٤ ، المسعودي ج ٧ ص ٨٠

(٣) الفهرست ص ٥٣ (٤) الاشتقاق لابن دريد ص ١٥٣

(٥) الأغاني ج ١١ ص ٨٦

(٦) المسعودي ج ٥ ص ٤٨ (٧) كولد تشيهر الدراسات المحمدية ج ١ ص ٢٠٢

(٨) المسعودي ج ٧ ص ٨٠

(٩) أخبار أبي نواس ص ٥٧

بالفرس^(١) ، وكان إذا رأى شيئاً يشرف العرب أرجعه إلى الفرس ، فإذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية ممتعة قال : إن العرب قلدوا الفرس بها^(٢) . وقد بالغ في ذلك حتى جعل كثيراً من الأخلاق العربية وحياتهم راجعة إلى الفرس ، ويجعل الفضل في تقدم الأدب العربي راجعاً إلى الموالي بما ترجموه من آداب آبائهم ، مثل أبان بن عبد الحميد ونخاله الكبير الفضل ابن عيسى وولده عبد الصمد (راجع الميداني ج ١ ص ٣٦٠) ، يقول أبو عبيدة كان آباء هؤلاء فصحاء في بلاط خراسان ، فلما وقعوا في أسر العرب أخذت تجرى في عروقهم تلك المواهب فأصبحوا خطباء في العربية كما كانوا لسناً في الفارسية (راجع البيان والتبيين) يقول كولد تسهر ، وهكذا يريد أبو عبيدة أن يقطف كل وردة في تاج الفخر العربي^(٣) ، وعن أبي عبيدة هذا انتشرت الروايات في كتب التاريخ والأدب واعتمد عليه كثير من المؤرخين والمتفقيين باللغة ، فكان الطبري يروي عنه أخبار القبائل العربية^(٤) ، ونجد أمثلة واضحة من اختراعه على العرب في مثالبهم في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري^(٥) ، وعلى هذا اتخذ البحث في اللغة العربية والأدب العربي وأخبارهما شكليين مختلفين ، أبو عبيدة وأضرابه يضعون في ظل الموالي ما يشاءون ، والأصمعي وأمثاله يذكرون ما يرد إليهم من منابعه^(٦) .

مات هذا المولى العالم الراوية المحدث عام ستة عشر ومائتين ، وقيل ستة وقيل سنة ثمان أو تسع بعد المائتين ، ويقال إنه ولد سنة عشر بعد

(١) كولد تسهر ص ١٩٧ ، السعودي ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) كولد تسهر ص ١٩٧ ، الكامل ص ٣٥١ .

(٣) الدراسات المحمدية ص ١٩٩ . (٤) ص ٢٥٠ .

(٥) انظر ص ١٥٧ من هذا الكتاب نفسه .

(٦) راجع ابن خلكان رقم ٣٨٩ ج ٤ ص ٨٨ وانظر السيوطي في المزهرة ج ١ ص ٢٠٢ .

المائة وهو اختلاف لم يتحقق وجه الصواب فيه ، ودفن ولم يحضر جنازته أحد لأنه لم يسلم منه شريف ولا غيره (١) .

٢ - علان أو غيلان

ومن رواة التاريخ ورواضي الأخبار علان أو غيلان ينسب إلى بيوتات العجم ، ينقض العرب ، كان منقطعاً إلى البراهكة ، نسخ للرشيد والمأمون في بيت الحكمة ، ووضع كتاب المثالب الذي هتك فيه العرب ، وأظهر مثالبها ، واستقصى فيه جميع القبائل خاصة مثالب قريش (٢) .

يقول الألويسي : ثم نشأ غيلان الشعوبي وكان زنديقاً ثنويّاً ، فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن الإسلام بدأ فيه بمثالب بني هاشم ، وذكر مناقبهم وأمهاتهم ثم بطون قريش ، ثم سائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان (٣) ، ومن أمثلة ذلك ما شتم به آل منقر قال عنهم : إنهم قوم غدر يقال لهم السكوادن ، ويلقبون أيضاً بأعراف البغال ، وهم أسوأ خلق الله (٤) ، وفي ديوان الحماسة ما ثبت غير ذلك . قال سيدهم قيس بن عاصم :

إني امرؤ لا يعترى خلقي دنس يفتده ولا أفن
من منقر في بيت فكرمة والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفظنون لعيب جارهم وهم لحفظ جوارهم فطن (٥)
وسيد منقر هذا لم يسلم من لسان أبي عبيدة فقد وضع عليه مثلاً
في كتاب الأمثال الميداني وزخرفه بحكاية (٦) .

(١) الفهرست ص ٥٣ .

(٢) فهرست ص ١٠٥ الأغاني ج ١١ ص ١٧٢ وقد ذكر ذلك كولد تسيهر ص ٢٠٦

وما بعدها . (٣) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٦٠ .

(٤) أغاني ج ١٢ ص ١٥٦ . (٥) حماسة ص ٦٩٥ .

(٦) الميداني ج ٢ ص ٩ راجع المقدم ج ١ ص ٣١ ، أغاني ج ٣ ص ١٩ .

رواة الأدب وواضعو الشعر

١ — حماد الراوية

يقال عن حماد هذا إنه ابن سابور بن المبارك بن عبيد ، وكان سابور يكنى أبا ليلى من سبي الديلم^(١) وجاء في المزهر إنه حماد بن هرمز الديلمي . ومهما يكن فهو الراوية المشهور الذي روى كثيراً من أشعار العرب وأهم المعلقات ، قال أبو حاتم كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره ، وكانوا يضعون الشعر ويقتنون المصنوع منه وينسبونه إلى غير أهله . قال الأصمعي : كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه عن أبي عمرو بن العلاء ، قال أبو الطيب : وحماد مع ذلك غير مأمون عند البصريين ولا ثقة . جاء أعرابي إلى حماد ، فأنشده قصيدة لم تعرف ، ولم يدركها ، فقال حماد : اكتبوها ، وقام الأعرابي ، قال لمن ترون أن نحتها ؟ فقالوا أقوالاً ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة .

قال الجاحظ : ذكر الأصمعي وأبو عبيدة عن يونس أنه قال : إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد وهو يلهن ، ويكسر الشعر ويصحف ويكذب . قال محمد بن سلام الجحفي : كان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ويؤيد في الأشعار . وفد حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، فقال ما أظرفتنى شيئاً ، فعاد إليه فأنشده القصيدة من شعر الخطيئة في مدح أبي موسى ، فقال ويحك ، يمدح الخطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى من شعر الخطيئة ولكن دعها تذهب في الناس . قال

(١) الفهرست ٩١ . المزهر ص ٢٠٥

ابن وهب الثقفي : كان حماد الراوية صديقاً مخلصاً ، فقامت له يوماً : أمل
عليّ قصيدة لأخوال بني سعد بن مالك ، فأملى عليّ لطفة :
إن الخليط أجسد منتقله ولذلك زمت غدوة إبله
عهدي بهم في الغضب قد سنبوا تهدي صعب مطيهم ذلك
وهي لأعشى همدان ، قال الأصمعي : جالست حمادا فلم أجد عنده
ثلاثة حرف ، ولم أرض روايته وكان قديماً .
جمع حماد الروايات التاريخية والأدبية ، وأضاف من عنده عليها
ما أراد ، ومات ولم يؤلف كتاباً ، بل كان الناس يأخذون عنه ، وقد
كتبت كتب ، فأسندت إليه^(١) وهي ليست له .

٤ - خلف الأحمر

ومن رواة الشعر ومنتحليه خلف الأحمر ، وهو أبو محرز خلف
ابن حيان ، أبوه من سبي قتيبة بن مسلم ، وكان راوية لحما ، تعلم كثيراً
من القصائد وعاش بعده ، قال أبو الطيب في مراتب النحويين : أخبرنا
محمد بن يزيد قال كان خلف الأحمر يضرب به المثل في عمل الشعر . وكان
يعمل على السنة الناس ، فيشبهه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ،
ثم نسك ، فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ، فلما نسك خرج إلى أهل
السكوفة ، فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له : أنت
كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي في دواوينهم إلى
اليوم^(٢) أعني أن المنحول بقي على انتحاله ، لا فرق بينه وبين الصحيح .
وقد ورد في الحماسة شعر لتأبط شراً ، ولكن البعض يقول إنها من وضع
خلف الأحمر^(٣) .

(١) راجع المفضليات نشرها لايل ص ١٧ وما بعدها . الزهر ج ٢ ص ٨٧ ،
ص ٢٠٥ وما بعدها وقد ذكرها آل ورد في كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ النهروست ، ص ٩٠ .
(٢) مزهر ص ٨٨ .
(٣) حماسة ص ٣٨ نشرها فرايتاج

وقد خدع أهل السكوفة كما خدع أهل البصرة^(١) ، ورغم ذلك كله كان طلاب العلم يجتسعون حوله يروون عنه ما يقوله ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي صاحب كتاب طبقات الشعراء^(٢) . يقول ابن النديم كان خلف الأحمر من أمرس الناس لبديت شعر وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم^(٣) . ويمزى إليه تأليف ديوان والسكن لم يعرف عنه ذلك . ولما مات رثاه أبو نواس بثلاث قصائد مذكورة في ديوانه .

المترجمون

١ — أبان بن عبد الحميد اللاهثي

كان ولاؤه للرقاشيين وكان من الأدباء والمترجمين المعروفين في القرن الثاني الهجري ، وضع جملة مختارة من الأدب الفهلوي بين يدي القراء ، فترجم تاريخ مزدك وسيرة أردشير ، وكتاباً خاصاً ببوذا وكتيباً أخرى ، وترجم كتاب كليله ودمنة ، ونظمه شعراً ليسهل حفظه على جعفر ابن يحيى البرمكي .

وكان يعرف عن أبان هذا أنه زنديق ، وأنه ممن يتشبهون بحماد عجرد ووالبة بن الحباب وأمثالهما ، وهو من الذين يمجدون ماني ، ولا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس . تفيماً بظلال بني برمك فوثقوا به ووكلوا به امتحان الشعراء وتصنيف قصائد المدح التي كانت تترى على عتبات آل برمك . وكان له القول الفصل في ذلك فعلا شأنه وحسن ذكره وقد وضع مرة قصيدة لأبي نواس في موضع لا يليق بها ، فغضب أبو نواس وهجاه هجاء مرأ كشف فيه صفحة حاله ، وقد كتبت هذه القصيدة في الجزء

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٩١ طبع باريس . (٢) مزهر ج ٢ ص ٣٧١ .

(٣) فهرست ص ٥٠ راجع آل ورد في كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ .

المشرفين من كتاب الأغاني ، والجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ ،
ولكن أبانا كان ذكي الفؤاد حذراً فكان يدرأ عن نفسه الشبهات لئلا
يقع بين يدي صاحب الزنادقة مثلما وقع غيره من أمثاله ويقال إن صديقاً
أشار عليه بأن يؤلف كتاباً في العبادات ، وقد فعل ووضعها نظماً ، وروى
لنا الصولي قطعة من هذا الكتاب فيما يخص الصيام والاعتكاف ، وجاء
ذكر هذا في الفهرست لابن النديم . ومع ذلك كله فإن الناس كان يعرفون
عن أبان أنه يظهر خلاف ما يبطن ، وأنه من صنائع البرامكة الذين لهم
وجهة خاصة ورأي خاص في كل ما جاء عن قلب الجزيرة العربية .

يقول المعذل الشاعر :

رأيت أبانا يوم فطر مصلياً فأدهش رأياً واستفزني الطرب
وكيف يصلي مظلم القلب دينه على دين ماني إن ذاك من العجب

٢ — الفضل بن سهل

ومن المترجمين من الفارسية إلى العربية الفضل بن سهل ، فقد نقل
ليحيي كتاباً من الفارسية إلى العربية ولم نعرف عن هذا الكتاب شيئاً ،
فأعجب يحيى بفهمه وجودة عباراته فقال له : إني أراك ذكياً ، وستبلغ
مبلغاً ربيعاً فاسلم ، حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا والإحسان
إليك ، فقال : نعم أصلح الله الوزير ، أسلم على يدك ؟ فقال له يحيى : لا !
ولكن أضعك موضعاً تنال به حظاً من دنيانا ، ودعا سالماً مولاه وقال :
خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر ، وقل له يدخل على المأمون ، وكان
في حجر جعفر ، حتى يسلم على يديه فوصله وأحسن إليه ، وأجرى عليه
رزقاً مع حشمه ، ولم يزل ملازماً للفضل حتى أصيب البرامكة فلزم المأمون
وكان البرامكة يعلقون آمالاً عليه من ذلك ما ذكره أبو العلاء المذاري

أنه سمع الفضل بن سهل يقول : قال لي يحيى بن خالد في كل أربعين سنة يحدث رجل يحدد الله به دولة وأنت عندي منهم (١) .

واضعو الكتب ضد العرب

١ - سهل بن هرون

ومن الذين نقموا على هذه المبادئ الجديدة التي حلت بين ظهراني قومهم ، ووجهتهم وجهة أخرى ، سهل بن هرون خازن بيت الحكمة المأمون . يقول كولد تسيهر : إن العالم المشهور أمين سر المأمون وخازن بيت الحكمة سهل بن هرون الدستيماني كتب عدداً كبيراً من الكتب أظهر فيها تعصبه ضد العرب ، ونخره بالعجم ، وكان من متطرفي قومه في أيامه ، وأدبه الغريب الذي اشتهر به ، إنما وضعه ايسخر به من العرب فإنه كتب سلسلة من الرسائل يمدح فيها البخل بل كتب كتاباً على ما يقال يذم فيه الكرم ويفضل البخل وما ذلك إلا لأن الكرم صفة من صفات العرب (٢) .

٢ - سعيد البختكان ومحمد بن الليث بن الخطيب

وقد كتب سعيد بن البختكان كتاباً سماه (انتصاف العجم من العرب) ووضع كتاباً آخر أسماه (فضل العجم على العرب واقتنارها) . وكان محمد بن الليث بن الخطيب بن ادرياد بن فيروز يرمى بالزندقة وكانت البرامكة تقدمه وتحسن إليه . يقول عنه كولد تسيهر : إن الفقيه الخطيب محمد بن الليث الذي ينتهي نسبه إلى دارا كان مولى لبني أمية ، لم يتوان

(١) جهشيارى ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) كولد تسيهر الدراسات المحمدية ص ١٦١ ، الفهرست ص ١٢٠ .

من إظهار عصبية للفارس في أيام البرامكة ، ولعل هذه العصبية هي التي جعلت الناس يرمونه بالزندقة (١) .

١ - الرقاشي

ومن هؤلاء الذين كانوا ينعمون في ظل البرامكة وينقمون على العرب الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش من عجم أهل الرى ، انقطع إلى آل برمك فأغنوه عن سواهم وكانوا يصورون به على الشعراء ويروون أولادهم شعره ويدونون القليل والكثير منه تعصباً له وحفظاً لخدمته ، وتنوياً باسمه وتحريكا لنشاطه فحفظ ذلك لهم ، فلما نكبوا ، صار إليهم في حبسهم وأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا ، ورثاهم فأكثر في رثائهم . ومن قوله في الفضل بن يحيى :

أما والله لولا خوف وأشى وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستانينا كما للناس في الحجر استلام
فما أبصرت قبلك يا بن يحيى حساماً حثفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام

على أمثال هذا وغيره من رواة الأدب والتاريخ ومترجمي الكتب ، اعتمد البرامكة وبهم وجهوا التاريخ والأدب والحياة توجيهاً خاصاً ، وسنفرد الأدباء الذين نهجوا نهجاً معروفاً باباً خاصاً بهم . وقد مكنتهم من مناصب الدولة والمراكز العالية وخصوهم بالعطاء وساعدوهم على نشر آرائهم ومترجماتهم ، ومن هذه المنابع استقيننا أكثر نواحي أدبنا وتاريخنا ، فمكتب المؤرخون ، وروى الأدباء ، وتمثلوا بالأساليب والآراء . وسنرى في باب الشعر ما فعله شعراء الموالي .

(١) راجع الفهرست ص ١٢٠ ، ١٢٣ ، الدراسات الحمديّة ص ١٦١

نكبة البرامكة

شعر العرب بخطر الموالي شعوراً بيناً منذ أول أيام الدولة العباسية ،
قال عبد الصمد بن علي المهدي : يا أمير المؤمنين ، إنا أهل بيت قد أشربت
قلوبنا حب موالينا وتقديهم ، وإنك قد صنعت من ذلك ما أفرطت فيه ،
فقد وليتهم أمورك كلها ، وخصصتهم في ليالك ونهارك ، ولا آمن تغيير
جندك وقوادك من أهل خراسان ، فلم يهتم المهدي بذلك . ولما صارت
الخلافة إلى الرشيد ، اتسعت سلطة الموالي فاستولوا على الحركة العلمية
والأدبية ، وعلى شئون الدولة جميعها ، ومنع العرب من الوصول إلى
بلاط الخليفة ، وظلوا يعيدون عن هذا البلاط ، تارة يذكرون الناس
بأبيات من الشعر وأخرى يستطيعون إيصال خبر مقتضب إلى الخليفة ،
ولسكن كل ذلك لم ينفع (فقد كانت مراقبة الموالي شديدة) حتى أدرك
الرشيد الخطر وأيقن أن دولته شرعت تخرج إلى الزوال ، فأوقع بالبرامكة
هذه النكبة المشهورة التي كتب عنها المؤرخون كثيراً وصاغوا حولها
الأساطير التي نقرأها في كل تاريخ من تواريخ الأمة . ونجد فيها اختلاف
الأسباب وتنوع الآراء ، ويمكن تلخيص أسباب زوال هذه الأسرة
التي حكمت ما يقرب من سبعة عشر عاماً حكماً مطلقاً (٧٨٦ - ٨٠٢ م)
في الأمور الآتية :

- ١ - أرادوا قلب الحكم العباسي كما فعل أبو مسلم الخراساني في قلب
الحكم الأموي ، وقد حاولوا أن ينقلوا الحكم من أسرة إلى أخرى ،
وغايتهم في ذلك إضعاف شوكة العرب ليستطيعوا إعادة الدولة الفارسية^(١)
- ٢ - استأثروا بالأموال والتصرف بشئون الدولة^(٢) . يقول

(١) ط ج ٢ ص ٦٦٩ ، ابن خلكان ١٠٩ ، جهشباري ص ٣٠٥ .

(٢) مقدمة ص ١٤ وما بعدها .

ابن خلدون : إنما نكسب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتيجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغابوه على أمره وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمر مملكة فنقم عليهم ، كما يستدل من توقيع له جاء في العقد الفريد في أمر البرامكة ، أنبئته الطاعة وحضنته المعصية (١) .

٣ — أعطوا الوظائف لأقاربهم وصنائعهم من الموالي ، وأبعدوا الغنصر العربي . يقول ابن خلدون : وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من صاحب سيف وصاحب قلم (٢) .

٤ — اتهمهم بالزندقة وترويح عقائد المجوسية ومذاهب الشرك . يقول ابن النديم : البرامكة كلهم زنادقة ، ما عدا محمد بن خالد . ويقول كريم : إن أفراد أسرة البرامكة الشهيرة كانوا كلهم على دين ماني (٣) .

٥ — أخذ الشعراء يقفون على أبوابهم ويمدحونهم ، وأخذت تصلهم هدايا الملوك من أقصى التخوم ، واستولوا على القرى والضياع ، وتغلب اسمهم على اسم الأسرة المالكة (٤) .

فلم يستطع الرشيد صبراً على هذه الأمور وفعل فعلته وقضى عليهم قبل أن يغيروا مملكته . ولما عمل الرشيد جاء متأخراً ، فإن الموالي تمكنوا من الدولة بالوسائل التي ذكرت وتغلغلوا في المحيط ، ولم ينفع في الأمر قتل أفراد أو نفيهم ، فقد كثر علماء الموالي وظهرت آثارهم وزاد شعراؤهم وتمكنت جمعياتهم من وضع الخطط للوقوف أمام العرب وابتداع الوسائل لإنجاح المقاصد .

(٢) مقدمة ص ١٤ .

(١) عقد ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) فهرست ص ٣٣٨ ، تاريخ الثقافة ص ١٧٠ .

(٤) ابن خلدون مقدمة ص ١٤ .